يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ الزَّانِى لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى أحد الزوجين على الآخر ، والزانى فيه خِسَّة ، فلا يليق به إلا خسيسة مثله يعنى : زانية ، أو أخس وهى المشركة ؛ لأن الشرك أخسُّ من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهى من الله ، أمَّا الشرك فهو كفر بالله ؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية . وما نقوله فى زواج الزانى نقوله فى زواج الزانية ﴿ وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور]

وهنا يعترض البعض : كيف إنْ كانت الزانية مسلمة : أينكحها مشرك ؟ قالوا : التقابل هنا غرضه التهويل والتفظيع فقط لا الإباحة ؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً أبداً ، فالآية توبيخ لها :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات ، منها :

– أخرج أحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ فى امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها . فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية . وأخرجه كذلك الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠) .

– أخرج الترمذى فى سننه (٣١٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه قال لرسول الله ﷺ : أنكح عناقاً ؟ أنكح عناقاً ، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد علىَّ شيئاً حتى نزلت الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » .

يا خسيسة ، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخسّ .

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة ؛ لأن التى زنتْ تدور بين أمرين : إما أنها أقبلتْ على الزنا وهى تعلم أنه مُحرَّم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردَّت حكم الزنا واعترضت عليه فتكون مشركة ، وفى هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [النور] فهذا سبب طُهْر الأنسال أن يُحرِّم الله تعالى الزنا ، فيأتى الخليفة طاهر النسل والعنصر ، محضوناً بأب وأم ، مضموماً بدفء العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء ؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ ﴾

الرمى : قذف شىء بشىء ، والمحصنات : جمع مُحْصنة من الإحصان ، وهو الحفظ ، ومنه قولنا : فلانٌ عنده حصانة برلمانية مثلاً . يعنى : تكفَّل القانون بحفظه ؛ لذلك إنْ أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً ، ومنه أيضاً كلمة الحصن وهو الشىء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله .

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِنْ بَأْسِكُمْ .. ۝٨٠ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الدروع التى تحمى الإنسان وتحفظه فى الحرب .

والمحصنات : تُطلَق على المتزوجة ، لأنها حصَّنَتْ نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على الحرة ، لأنهم فى الماضى كانت الإماء هُنَّ اللائى يدعين لمسالة البغاء ، إنما لا تقدم عليها الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة هنداً[1] التى نُسيِّدها الآن بعد إسلامها ، وهى التى لاكتْ كبد سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن ؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله . لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ ينهى النساء عن الزنا قالت : أو تزنى حُرَّة[2] ؟ لأن الزنا انتشر قبل الإسلام بين البغايا من الإماء ، حتى كانت لهن رايات يرفعْنها على بيوتهن ليُعرفْنَ بها .

والمعنى : يرمون المحصنات بما ينافى الإحصان ، والمراد الزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ④﴾ [النور] وهذا يُسمَّى حدَّ القذف ، أن ترمى حُرَّة بالزنا وتتهمها بها ، ففى هذه الحالة عليك أنْ تأتى بأربعة شهداء يشهدون على ما رميْتَها به ، فإن لم تفعل يُقام عليك أنت حدُّ القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهى الأمر عند الجلْد ، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً .

﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا .. ④﴾ [النور] لماذا ؟ لأنه لم يَعُدْ أهلاً لها ؛ لأنه فاسق ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ④﴾ [النور] والفاسق لا شهادةَ له ، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حدَّ الجلْد ، ثم

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بن أبى سفيان ، وهى زوجة أبى سفيان بن حرب ، وهى التى لاكت كبد حمزة عم رسول الله ﷺ فى غزوة أحد بعد أن قتله وحشى بتدبير منها .

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٥٣) فى تفسير آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ .. ⑫﴾ [الممتحنة] وفيه أنها قالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : « لا والله ما تزنى الحرة » .

أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته ، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق ، فهو فى مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوِّل له نفسه الخوْضَ فى أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات ؛ لذلك عبَّر عن القَذْف بالرمى ؛ لأنه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة ، أو مجرد ذكرها والحديث عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

اختلف العلماء فى معنى الاستثناء هنا : أهو استثناء من الفسق ؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة ؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة منَّة وتكرُّم من الحق ـ تبارك وتعالى ـ لأنه لو لم تشرع التوبة كان مَنْ يقع فى معصية مرة ، ولا تُقبل منه توبة يتجرأ على المعصية ويكثر منها ، ولم لا ؟ فلا دافعَ له للإقلاع .

إذن : حين يشرع الله التوبة إنما يحمى المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم ، وفقدوا الأمل فى النجاة . فمشروعية التوبة كَرَم ، وقبولها كرم آخر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ۝١١٨ ﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا .. ۝٥ ﴾ [النور] تدل على أن مَنْ وقعتْ منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة ، وقد ورد فى الحديث الشريف :

« وأتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها ....»[1] لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم فى ناحية ما ، حينما يكبرون ويُحبّون التوبة تراهم شغوفين بحُبِّ الخير وعمل الطاعات ، يريدون أن يُكفِّروا بها ما سبق من السيئات ، على خلاف مَنْ حافظ على نفسه ، ونأى بها عن المعاصى ، فتراه بارداً من ناحيتها يفعل الخير على قَدْر طاقته .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُحذِّر عباده : يا عبادى احذروا : مَنْ أخذ منى شيئاً خلْسة أو ترك لى حكماً ، أو تجرأ علىَّ بمعصية سيتعب فيما بعد ، ويلاقى الأمَرّيْن ؛ لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتُجهده لأغفرها له ، وسيحتاج لكثير من الحسنات وأفعال الخير ليجبر بها تقصيره فى حَقِّ ربه .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٣/٥ ، ١٥٨) والترمذى فى سننه (١٩٨٧) والدارمى فى سننه (٣٢٣/٢) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال قال ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . واللفظ للترمذى .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ④﴾ [النور] قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : ألا تسمعوا يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا : يا رسول الله إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فكره رسول الله ما جاء به واشتد عليه فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجاً . فنزلت آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ .. ⑥﴾ [النور] فقال رسول الله ﷺ : أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً . فقال : قد كنت أرجو ذاك من ربى . وذكر باقى الحديث . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠ ، ١٨١) .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ
أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦)
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) ﴾

بعد أن تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن الذين يرمون المحصنات ، وبيّن حكم القذف ، أراد أنْ يبيِّن حكم الرمى إنْ كان من الزوج لزوجته ؛ لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه أن يكون مُؤدباً بأدب الشرع ، ولا يجرح الأولاد برمى أمهم ولا ذنب لهم .

لذلك شرع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الحالة حكماً خاصاً بها هو الملاعنة ، وقد سُمِّيت هذه الآية آية اللعان .

ويُرْوَى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إنى رأيتُ فلاناً على بطن زوجتى ، فإنْ تركتُه لآتى بأربعة شهداء لقضى حاجته وانصرف ، وإنْ قتلتُه فقد اعتديْتُ عليه[1] .

إذن : ما حَلّ هذا اللغز ؟

وينبغى أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بدايةً ، إنما يترك فى الكون من أقضية الحياة وأحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ، بحيث ينزل الحكم فيصادف الحاجة إليه ، كما يقولون : موقع الماء من ذى الغُلَّة الصَّادى ، يعنى : حين ينزل الحكم يكون له موضع فيتلقفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أنْ كانوا

(١) لفظ الحديث عند الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٣٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ جاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى » الحديث .

يستشرفون لحكم فى مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملاعنة أو اللعان خاصة ، لهذه الحالة التى يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أنْ يأتى عليه بشهود ليثبت هذه الحالة ؛ لذلك جعله الشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهداء الأربع .

يقول : أشهد الله أننى صادق فيما رميتُ به امرأتى ، يقولها أربع مرات ، وفى الخامسة يقول : ولعنة الله علىَّ إنْ كنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهى دور الزوج فى الملاعنة .

﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩ ﴾

(يَدْرأ) أى : يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هى الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول : أشهد الله أنه كاذب فيما رمانى به ، وفى الخامسة تقول : غضب الله علىَّ إنْ كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإنْ حلفتْ فقد تعادلا ، ولم يَعُدْ كل منهما صالحاً للآخر ، وعندها يُفرِّق الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودةَ بعده ، ولا تحل له أبداً[1] .

---

(١) وقد وردت الرواية بأن امرأة هلال بن أمية والتى رماها بالزنا مع شريك بن سحماء شهدت أربع شهادات أنها لم تفعل ، فلما كانت الشهادة الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت على القول ففرّق رسول الله ﷺ بينهما وقال : « انظروا ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين ، فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به جعداً حمش الساقين . أى : تحقق وثبت كذب المرأة وثبت صدق هلال ، فقال ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٦٨) .

هذا التشريع فَضْلٌ من الله ؛ لأنه أنهى هذه المسألة على خير ما تنتهى عليه ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ (١) وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾

أى : لولا هذا لَفُضِحتم ولتفاقمت بينكم العداوة ، لكن عصمكم فضل الله فى هذا التشريع الحكيم المناسب لهذه الحالة .

والقذف جريمة بشعة فى حَقِّ المجتمع كله ، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الأواصر ، هذا إنْ كان للمحصنات البعيدات ، وهو أعظم إنْ كان للزوجة ، لكن ما بالك إنْ وقع مثل هذا القول على أم ليست أماً لواحد ، إنما هى أم لجميع المؤمنين ، هى أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة ، والذى سُمِّى بحادثة الإفك ؛ لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أن يُعطينا الأسْوة فى النبوة نفسها ، ويريد أنْ يُسلِّى عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين ، وقد قيل فيها ما قيل ؛ لذلك ستظل السيدة عائشة أُسْوة لكل شريفة تُرْمَى فى عِرْضها ، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها ، نقول لها : لا عليك ، فقد قالوا مثل هذا فى عائشة .

وتقوم آيات الإفك دليلاً على صدق رسول الله ﷺ - فى البلاغ

---

(١) تكررت ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ..۝١٠ ﴾ [النور] أربع مرات فى هذه السورة . قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ٢٨٥ : « كرره لاختلاف الأجوبة فيه . إذ جواب الأول محذوف تقديره : لفضحكم . وجواب الثانى قوله ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤ ﴾ [النور]. وجواب الثالث محذوف تقديره : لعجَّل لكم العذاب . وجواب الرابع ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ۝٢١ ﴾ [النور]

عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفظع من ذلك أنْ يرموا زوجة النبى وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ(١) مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى(٢) تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

الإفك : لدينا نسَب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية حين تتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه قضية ذهنية ، فإنْ نطقتَ بها فهى نسبة كلامية ، فهل هناك شخص اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإنْ وافقت النسبةُ الكلامية النسبةَ الخارجية ، فالكلام صدْق ، وإنْ خالفت فالكلام كذب .

فالصدق أنْ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب ألاَّ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب قد يكون غير مُتعمد ، وقد يكون مُتعمداً ، فإنْ كان مُتعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كأنْ أخبره شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس كاذباً .

فالإفك - إذن - تعمُّد الكذب ، ويعطى ضد الحكم ، كأن تقول : محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل ؛ لذلك كان الإفكُ أفظعَ أنواع الكذب ؛ لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة [القاموس القويم ٢/٢٢] قال فى [لسان العرب - مادة : عصب] « العصبة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٢) : « الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله ابن أبى بن سلول قبحه الله ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك جماعة وغير واحد . وقيل : المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب » .

يقول تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] وهى القُرَى التى جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغيِّر الواقع ، ويقلبه رأساً على عقب .

والعصبة : الجماعة التى ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول : عصابة مخدرات ، عصابة سرقات ، يعنى : جماعة اتفقوا على تنفيذ حَدَث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴿١٤﴾﴾ [يوسف]

وما دام أهلُ الإفْك عصبةٌ فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة فى التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعذور فى أن يكون كذلك ، ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أُبىٍّ تاجاً ليُنصِّبوه ملكاً على المدينة(١) ، فلما فُوجِىء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيت هذه فى نفسه .

لذلك فهو القائل : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ.. ﴿٨﴾﴾ [المنافقون] يقصد أنه الأعزّ ، فردَّ عليه الحق ـ تبارك وتعالى ـ صدقت ، لكن العزة ستكون لله وللرسول وللمؤمنين ، وعليه فالخارج منها أنت .

وهو أيضاً القائل : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا.. ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ،

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٥٨٤) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم . فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » .

ويقـولها عـلانيـة ، ومع ذلك ينكرها بأعـمـاله وتصـرفاته ، ويحـدث تشويشاً فى الفكر وفى أداء العبارة .

وما دام أن الحق سبحانه سمَّى هذه الحادثة فى حَقِّ أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بُدَّ أنهم قَلَبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت فى غزوة بنى المصطلق ، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعـة بين زوجاته : مَنْ تخرج منهن مـعه . وهذا ما تقتـضيه عـدالته ﷺ ، وفـى هذه الغزوة أقـرع بينهن فـخـرج السهم لـعائشـة فخـرجتْ معه ، وبـعد الغزوة وأثناء الاسـتعداد للعـودة قالت السـيدة عائشـة : ذهبتُ لأقضى حـاجتى فى الخلاء ، ثم رجـعت إلى هَوْدَجِى ألتمس عِقْداً لى من (جَزْع ظَفَار)[1] وهو نوع نفيس .

فلمـا عادت السـيدة عـائشة وجـدت القوم قـد ذهبوا ، ولم تجـد هَوْدجها فقـالت فى نفسها لا بُدَّ أنهم سيفتقـدوننى وسيعودون . لكن كيف حمل القوم هودج عائشـة ولم تكُنْ فيه ؟ قالوا : لأن النساء كُنَّ خفَافـاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نـحيفة ، لذلك حمل الرجـال هَوْدجها دون أن يشـعروا أنهـا ليست بداخلـه . ثم نامت السيـدة عائشـة فى موضـع هودجـها تنتظر مَنْ يأتيـها ، وكان من عـادة القوم أن يتـأخر أحدهم بعد الرحيل ليـتفقد المكان ويُعقب عليه ، علَّه يجد شـيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلَّف عن الرَّكْب .

---

(١) الجَزْع والجزْع : نوع من الخـرز اليمانىّ ، وهو الذى فيه بياض وسـواد تُشبَّه به الأعين ، وظَفَار : قريَة من قرى حِمير منسوبة إلى ظفـار أسد مدينة باليمن [لسان العرب ـ مادتا : جزع ، ظفر] .

وكـان هذا المعـقِّب هو صـفوان بن المـعطل[1] ، فلمـا رأى شبحَ إنســان نائم فاقـترب منه ، فـإذا هى عائشــة رضى الله عنها ، فـأناخ ناقته بجوارها ، وأدار وجهه حتى ركبتْ وسار بها دون أن ينظر إليها وعَفَّ نفـسه ، بدليل أن القـرآن سمَّى ما قـالوه إفكًا يعنى : مناقـضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولمـا قَدم صـفـوان يقود ناقـتـه بعائشــة رآه بعض أهل النفـاق فاتهمـوهما ، وقالوا فى حقـهما مَا لا يليق بأم المـؤمنين ، وقد تولَّى هذه الحملة رأسُ النفاق فى المدينة عبد الله بن أُبىٍّ ومسْطح بن أُثَاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش ، فروَّجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١١) ﴾ [النور] لكن ما الخـير فى هذا الكلام وفى إذاعـته ؟ قـالوا : لأن القرآن حين تُتَّهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامـة ، وحين يُفضَح قوم على لسان القرآن ، لا بُدَّ أن يعتبر الآخرون ، ويخافوا إنْ فـعلوا مخالفة أنْ يفتضح أمرهم ؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان .

نعم ، أصبحت هذه الحـادثة خيراً ؛ لأنها نوع من التـأييد لرسول الله ولدعـوته ، فـالحق ـ تبـارك وتعالى ـ يـؤيِّد رسوله فـى الأشيـاء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه فى الانتصار عليه ، ولو بالتدليس ، وبالمكر ولو بالإسرار والكَيْـد الخفى ، ففى ذروة عداء قـريش لرسول الله كان

---

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكـوانى ، أبو عمرو : صحابى شهد الخندق والمشاهد كلهـا ، وحضر فتح دمشق ، واستـشهد بأرمينية . وقيل : فى سـميساط . روى عن النبى ﷺ حديثين . توفى عام ١٩ هـ (الأعلام للزركلى ٢٠٦/٣) . وقال الحاكم فى مستدركه (٥١٨/٣) « مات بشمشاط سنة ستين وقبره هناك » .

إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم .

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ، فحاولوا أن يسحروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه في بئر ذروان في مُشْط ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث رسول الله ﷺ علياً فجاء به[1] .

إذن : عجزوا في المواجهة ، وعجزوا في التبييت والكيد ، وعجزوا حتى في استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا في تشويه صورة النبوة والنَّيْل من سمعتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لأعدائه : اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين .

ومع ذلك ، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون في حقها ، لكن تغيَّر لها رسول الله ﷺ ، فلم يَعُدْ يداعبها كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : « كيف تيكم » وقد لاحظت عائشة هذا التغيُّر لكن لا تعرف له سبباً إلى أنْ تصادف أنْ سارت هي وأم مِسْطح أحد هؤلاء المنافقين ، فعثرتْ فقالت : تعس مِسْطح فنهرتها عائشة : كيف تدعو على ابنها ، فقالت : إنك لا تدرين ما يقول ؟ عندها ذهبتْ السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عَمَّا يقوله الناس فأخبرتها .

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢١٨٩) كتاب السلام أن رسول الله ﷺ قال : « جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ فقال الذي عند رأسي للذي عند رجليَّ ، أو الذي عند رجليَّ للذي عند رأسي : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة . قال : وجُفّ طلعة ذكر . قال . فأين هو ؟ قال : في بئر ذي ذروان » .

لذلك لما نزلت براءة عائشة في القرآن قال لها أبو بكر : قومى فاشكرى رسول الله ، فقالت : بل أشكر الله الذى برّأنى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ .. (١١) ﴾ [النور]

عادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد فى الخير ، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال فى الشر ، لماذا ؟ قالوا : لأن فعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع ذراتها وتكوينها ، فالذى يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً فى نفسه ، ولا يعارض ملكَة من ملكَاته ، أو عادة من العادات .

وهذه نلاحظها حتى فى الحيوانات ، ألاَ ترى القطة : إنْ وضعتَ لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإنْ أخذتْها منك خَطْفاً تفرّ بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك . إذن : فى ذاتية الإنسان وفى تكوينه ـ وحتى فى الحيوان ـ ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ .

وأنت إذا نظرتَ إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً ؛ لأن ملَكَات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك فى هذا الفعل ، فإنْ حاولتَ النظر إلى ما لا يحلّ لك تختلس النظرة وتسرقها ، وتحاول سترها حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً غير طبيعى ، لا حَقَّ لك فيه ، فتتعارضك ملَكَاتُ نفسك ، وذراتُ تكوينك . فالأمر الطبيعى تستجيب له النفس تلقائياً ، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال ، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد بـ (اكتسب) الدال على الافتعال .

---

(١) قصة حادثة الإفك وردت بطولها فى صحيح البخارى (حديث ٤٧٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٦ / ٥٩ ، ٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقوله تبارك تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور]

تولّى كبر الشيء : يعنى قام به وله حَظٌّ وافر فيه ، أو نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أُبيّ الذى قاد هذه الحملة ، وتولّى القيام بها وترويجها ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور] أى : يناسب هذه الجريمة .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يُوجِّهنا الحق - تبارك وتعالى - إلى ما ينبغى أن يكون فى مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم وبإيمانهم ، وأنْ يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التى لا تليق بمجتمع المؤمنين ، فكان على أول أُذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصَفْوته من خَلْقه ، فيجعل زوجته محلَّ شكٍّ واتهام فضلاً عن رَمْيها بهذه الجريمة البشعة .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور] كان من المنتظر قبل أن تنزل المناعة فى القرآن أن تأتى من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام .

و (لولا) أداة للحضّ والحثّ ، وقال : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [النور] لأنه جال فى هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحثهم على ظنّ الخير برسول الله أو بزوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم

هم ؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين ، فما بالك بزوجة نبى الله ورسوله ﷺ ؟

﴿ وَقَالُوا .. ⑫ ﴾ [النور] أى : قبل أن ينزل القرآن ببراءتها ﴿ هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ⑫ ﴾ [النور] يعنى : كذب متعمد واضح بيِّن لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق أم المؤمنين التى طهَّرها الله واختارها زوجة لرسوله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ⑬ ﴾

وسبق أنْ ذكرت الآيات حُكْم القذف ، وأن على مَنْ يرمى المحصنة بهذه التهمة عليه أنْ يأتى بأربعة شهداء ليثبت صدْق ما قال ، فإنْ لم يأتِ بهم فهو كاذب عند الله ، ويجب أنْ يُقام عليه حَدُّ القذف .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑭ ﴾

﴿ أَفَضْتُمْ .. ⑭ ﴾ [النور] أن تندفع إلى الشىء اندفاعاً تقصد فيه السرعة ، ومعنى السرعة أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقلَّ مما يتصوَّر له ، كالمسافة تمشيها فى دقيقتين ، فتسرع لتقطعها فى دقيقة واحدة ، فكأنهم أسرعوا فى هذا الكلام لما سمعوه ، كما يقولون : خبَّ فيها ووضع .

لكن ، لماذا تفضَّل الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسَّهم العذاب ، ولم يُجازهم على افترائهم على أم المؤمنين ؟

قالوا : لأن الحق - تبارك وتعالى - أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلةَ إيضاح ، فليس المراد أن يُنزل الله بهم العذاب ، إنما أن يُعلمهم ويعطيهم درساً في حِفْظ أعراض المؤمنين .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) ﴾

انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وَعْي ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقِّي الأخبار يكون بالأذن لا بالألسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بألسنتهم ، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ (١٥) ﴾ [النور]

﴿ بِأَفْوَاهِكُم .. (١٥) ﴾ [النور] يعني : مجرد كلام تتناقله الأفواه ، دون أنْ يُدقِّقوا فيه ؛ لذلك قال بعدها ﴿ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ .. (١٥) ﴾ [النور] وهذا الكلام ليس هيناً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله ؛ لأنه تناول عِرْض مؤمن ، وللمؤمن حُرْمته ، فما بالك إنْ كان ذلك في حَقِّ رسول الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

هذا ما كان يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أنْ تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام . وكلمة ﴿ سُبْحَانَكَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] تقال عند التعجُّب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نُنزِّهه ونُجله ونُعليه أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع في حقِّ رسوله ﷺ ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفي ، فإنْ كان الكلام بالإثبات جريمةً فالكلام بالنفي فيه مَظنة أن هذا قد يحدث.

كما لو قلت : الورِع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكأنه رغم النفي جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه السوء ولو بالنفي ، فذلك ذمٌّ في حقِّه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ، ولو حتى بالنفي ، ومعنى ﴿ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] كذب يبهت سامعه ، ويُدهشه لفظاعته ، وشناعته . فنحن نأنف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا مُنكرين له .

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

الوعظ : أن تأتي لقمة الأشياء فتعظ بها ، كالرجل حينما يشعر بنهايته يحاول أنْ يعظَ أولاده ويُوصيهم ، لكن لا يُوصيهم بكُلِّ أمور الحياة ، إنما بالأمور الهامة التي تمثل القمة في أمور الحياة . ووعظ

الحق - تبارك وتعالى - لعباده من لُطفه تعالى ورحمته ، يعظكم ؛ لأنه عزيز عليه أنْ يؤاخذكم بذنوبكم .

وتذييل الآية بهذا الشرط : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور] حثٌّ وإهاجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وإلاَّ يقعوا فيه مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إنْ عُدْتُم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم ؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ(١) فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ يُحِبُّونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النور] الحب عمل قلبى ، والكلام عمل لسانى ، وترجمة عملية لما فى القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم يتكلَّموا به ؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم التحدث ، ثم السماع دون إنكار .

ولفظاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ، وهى مجرد عمل القلب الذى لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن : المسألة خطيرة .

والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هى للمتهم ، لكن قد تنتهى بحياته ، وقد تنتهى ببراءته ، لكن المصيبة

(١) الفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القويم ٧٣/٢] .

أنها ستكون أسْوة سيئة فى المجتمع .

وهذا توجيه من الحق - سبحانه وتعالى - إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُرَاعى ، وهى : حين تسمع خبراً يخدش الحياءَ أو يتناول الأعراض أو يخدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أنْ تشيعه فى الناس ؛ لأن الإشاعة إيجاد أُسْوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول فى نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٩) ﴾ [النور]

والحق - تبارك وتعالى - لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأسْوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة فى حق رجل محترم مُهَاب فى مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإنْ سمعت فى حقِّه مَا لاَ يليق فلربما زهَّدك ما سمعتَ فى هذا الشخص ، وزهَّدك فى حسناته وإيجابياته فكأنك حرمتَ المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هى التعليل الذى يستر الله به غَيْب الخَلْق عن الخَلْق ، إذن : سَتْر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثرى الخير فى المجتمع وتُنميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على علاَّتهم ، وصدق الشاعر الذى قال :

فَخُذْ بِعلْمى ولاَ تركَنْ إلىَ عَملِى ... وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾

انظر كم فضل من الله تعالى تفضّل به على عباده فى هذه الحادثة ، ففى كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإنْ ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يُفهَم من السياق وتقديره : لَفُضحتُم ولَهلكتم ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أنْ تُقدِّره كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفى موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس] فالحق - سبحانه وتعالى - شرع منهجاً ويجب مَنْ يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته فى تقبُّل هذا العمل . إذن : ففضْل الله هو القاسم المشترك فى كل تقصير من الخَلْق فى منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بُدَّ أنْ يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ[1] مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) زكا : طهر وصلح فهو زكى وهى زكية . [القاموس القويم ٢٨٧/١] قال القرطبى فى تفسيره (٤٧٤٢/٦) : « أى : ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً » ، على قراءة (زَكَى) أما على قراءة (زكّى) « أى أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هى بفضله لا بأعمالكم » .

كأن الشيطان له خطوات متعـددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسبَّبة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقـعة ثابتـة ، حيث امتنع عن السـجود لآدم ، وعـصى أمر الله له ، بل وأبدى ما فى نفسه وقال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء] وهكذا علّل امتناعه بأنه خير ، وكأن عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتنـاعه عن السـجود ، إنما يـحذرنا منه ، ويُنبِّـهنا إلى خطره ويُربِّى فينا المناعة من الشيطان ؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هى عداوة لها منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عـرف كيف يقسم ، فـدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خلْقه ، فقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص]

فلو أرادنا ربنا ـ عـز وجل ـ مـؤمـنين ما كـان للـشيـطان علينا سبيل ، إنـما تركنا سبحـانه للاختيار ، فـدخل علينا الشيطان من هذا الباب ؛ لذلك قـال بعدها : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر] فمَن اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مـسـألة العـداوة هذه ليـست بين الحق سـبـحـانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبنى آدم .

فقـوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ۝٢١﴾ [النور] نداء : يا من آمنتم بإله كأنه يقـول : تَنبَّهوا إلى شـرف إيمانكم به ، وابتعدوا عـما يُضـعف هذا الإيمـان ، أو يفُتُّ فـى عَضُـد الـمؤمـنين بأىِّ وسـيلة ، وتأكَّدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

﴿لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (٢١)﴾ [النور] فإنْ وسوس لك من جهة ، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً فى هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى ، وزيَّن لك من باب آخر ، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقعك ، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف فى تكوينه ، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة .

والشيطان : هو المتمرد العاصى من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائع والعاصى ، والعاصى منهم هو الشيطان ، وعلى قمتهم إبليس ؛ لذلك يقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين المعصية من قبل النفس والمعصية من قبل الشيطان ، فالنفس تُلح عليك فى معصية بعينها لا تتعدَّاها إلى غيرها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، فإن امتنعت عليه فى معصية جرَّك إلى معصية أخرى أياً كانت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٢١)﴾ [النور] ولك أنْ تسأل : أين جواب (مَنْ) الشرطية هنا ؟ قالوا : حُذف الجواب لأنه يُفهم من السياق ، ودلَّ عليه بذكر علَّته والمسبَّب له ، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب : مَنْ يتبع خطوات الشيطان يُذقْه ربه عذاب السعير ؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، فَمَنْ يتبع خطواته ، فليس له إلا العذاب ، فقام المسبِّب مقام جواب الشرط .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام رَبِّ العالمين . وأسلوب القرآن أسلوب رَاقٍ يحتاج إلى فكر وَاعٍ يلتقط المعانى ، وليس مجرد كلام وحَشْو .

ألاَ ترى بلاغة الإيجاز فى قوله تعالى من سورة النمل : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل]

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل]

وتأمل ما بين هذيْن الحدثيْن من أحداث حُذفت للعلم بها ، فوعى القارىء ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدهد .. وو إلخ فهذه أحداث يُرتِّبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطانُ نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبيَّن طرقه فى الإغواء ، ألم يقل : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] فلا حاجةَ للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسِد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوساوس التى تنتابه فى صلاته ، وهى فى الحقيقة ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولولا أنك فى طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، فنسير نحن خلْفه (نكُرّ فى الخيط كَرّاً) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان استعذْنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠)﴾ [الأعراف]

إذن : إياك أنْ تقبل منه طرف الخيط ؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر عليه بعد ذلك .

ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧)﴾ [الأعراف]

إذن : للشيطان فى إغواء الإنسان منهج وخُطّة مرسومة ، فهو يأتى الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل ؛ لأن الأولى تشير إلى عُلُوِّ الربوبية ، والأخرى إلى ذُلِّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض فى سجودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [النور]

قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغى أن نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإنْ عاملنا ربنا ـ عز وجل ـ بالعدل لَضِعْنا جميعاً .

لكن ، فى أىِّ شىء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى لم يُعذِّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فَضْلُ الله على هذه الأمة فى أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرَّض للحَدث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع فى المعصية ، وقبل أن تفاجئنا الأحداث ، فقال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾ [طه] وإلا لغرق الإنسان فى دوامة المعاصى .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّى المناعة فى النفس ، فلم يتركنا ربنا ـ عز وجل ـ فى غفلة إلى أنْ نقعَ فى المعصية ، كما نُحصِّن نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَكَىٰ منكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. (٢١) ﴾ [النور] (زكَى) تطهَّر وتنقَّى وصفَّى ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور] وقال : ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور] لأنه تعالى سبق أنْ قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩) ﴾ [النور] ذلك فى ختام حادثة الإفك التى هزَّتْ المجتمع الإسلامى فى قمته ، فمسَّتْ رسول الله ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور : ٢١] بما تُكِنُّه القلوب من حُبٍّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ[2] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

تورط فى حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساقَ خلف مَنْ روَّجوا لهذه الإشاعة ،

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « المشهور من الروايات أن هذه الآيات نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى قحافة ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما كان أمر الإفك وقال مسطح فى عائشة ابنة أبى بكر ما قال حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً » .

(٢) يأتل : معناه يحلف ، وقالت فرقة : معناه يقصر . [القرطبى ٦/٤٧٤٣] .